اللغة والأسلوب في شعر (عرار)

للدكتور محمود السمرة

(نائب رئيس مجمع اللغة العربية الأردني)

قبل ثلاثين عاما توفي مصطفى وهبي التل . وقبل خمسة وعشرين عاما صدرت الطبعة الاولى من ديوانه « مشاعل وأشلاء اليابس » في عمان .

ورغم ان عرارا مشهور معروف في الاردن ، وهو شاعر الاردن دون منازع ، يحفظ شعره المثقفون ، ويردد بعض من لا حظا قليلا من الثقافة ، الا انه لا يكاد يعرفه احد خارج الاردن .

لماذا ؟

لعل من اسباب ذلك ان ديوانه الاول صدر في وقت كانت فيه امكانيات الطباعة في الاردن محدودة جدا : فالحروف صغيرة ، والاغلاط كثيرة ، والورق رديء ، والتوزيع معدوم .

ثم : ان شعر عرار مُحَلّى ، مغرق في محليته : محلّى في موضوعاته ، واشاراته ، وكثير من تعبيراته . ومما لم يتمثل القارئ هذه كلها تمثلا واضحا ، فان تجاوبه مع هذا الشعر يبقى محدودا . وقد بذل المرحوم الاستاذ محمود المطلق جهدا طيبا في شرح ما يحتاج الى شرح ، لتقريب هذا الشعر الى أذواق القراء العرب . واذكر انه ما من مرة تذاكرت شعر عرار مع اخوة عرب ، وقدّمت لهذا الشعر بما يُعين على ادراكه وتمثّله ، الا وجدت عندهم استجابة له ، ودهشة لان مثل هذا الشاعر غير معروف عندهم .

ثم : هناك امر يقع على ادبـاء الاردن : فهم لم يعنوا انفسهم بالتعريف بالشاعر وتقديم الدراسات عنه ، الا في نطاق محـدود .

* * *

لذلك هنا وجدتُ ان الحاجة اصبحت ملحّة لاصدار طبعة ثانية من الديوان ، وخاصة عندما وُضعت بين يدي اوراق الشاعر ، فوجدتُ فيها شعرا يستحق ان ينشر ، ولـم ينشر .

وهكذا ، في سنة ١٩٧٣ صدر ديوان « عشيات وادي اليابس » في طبعة جديدة فريدة ، تعكس تقدم فـن الطباعة في الاردن الحديث ، وتضع بين ايدي القـراء شعر الشاعر الاول في الاردن في شكل يليـق بجمال هذا الشعر ؛ وقد زينتـه رسومات الفنان الموهوب مُهنّا الدرة ، لعلي من ذلك ان نستطيع ايصال الديوان الى ايدي محبي الشعـر الجيـد ، لا في الاردن فحسب ، بـل في اكثر عدد ممكن من البـلاد العربيـة الشقيقـة .

ولكن ما اردناه لم يتحقق ، لسبب بسيط هو افتقارنا الـى مؤسسة ، او شركة ، لتوزيع الكتـاب الاردني وتسويقه . وبقيـت هذه الطبعة يسعى الى الحصول على نسخة منها ، ويجـدّ في السـعي ، من يجـد الرغبة في ذلك .

* * *

وفي رأيي انـه ما زالت هناك حاجة الى اصدار طبعة جديـدة من الديوان ، يقـوم المحقق فيها بايراد الروايات المختلفـة للابيات ، وترتيبها في القصائد ؛ فقـد خلصتُ من اطلاعي علـى اوراق الشاعر الى ان الصورة التي بين ايدينـا القصائد والابيات ، ليست الا صـورة واحدة من صور عـدة : ففي كثير من القصائد نجـد ترتيب الابيـات مختلفا ، والتغيير في اماكن الابيات كثيرا . ويحضرني هنـا التحقيق الممتاز الذي قـام بـه المستشرق Ritter لكتاب « اسرار البلاغة »

الكبار ، الذيـــن يجمعون احيانا بين الرائع والرديء في القصيدة الواحدة ، ويجمعون بين سورتين متنافرتين في بيتين متتاليين .

واذا كنـــا قد بدانا القول بان من سمات شعر عـــرار انه شعر مَحَلّي ، بالمفهوم الذي حدّدناه ، فمـــا موقف النقاد الجـــدد (The New Critics) ، الذين يسيطرون على كثير من الادب في ايامنـــا هذه في الغرب ، من مثل هذا الشعر ؟ انهم يرون ان القصيدة الجيدة مكتفية بذاتهـــا ، لا تحتاج للكشف عن اسرار البيئة فيها الى ان نعرف مناسبتها وظروفها ، ولا حتى من نظمها . وقد نقبل ان هذا القول صحيح ، ولكن في حـــدود . واننا لسنا من المؤمنين ايمانا مطلقا بمـــا يقولون ، ومن المؤمنين بالمنهج التكاملي الذي يرى الاستفادة من كـــل النظريات النقدية ، لانهـــا متكاملة ، غير متناقضة ، والاختلاف بينها هو اختلاف في زاوية الرؤيـــة .

٢ ـــ شعر عـــرار شعر ملتزم .

وقـــد كان عرار شاعرا ملتزما ، بكل ما في هـــذا المصطلح من دلالة وابعاد . وكانت مواقفه واضحة جريئـــة : فقد وقف الى جانب الفقراء ، والمعوزين ، وهاجم المستغلّين ، ودعا الى المســـاواة ونـــادى بالعدالـــة .

وهـــذا موقف سيبقى عرارا مذكورا دومـــا كشاعر عاش همـــوم شعبه وايجاد التعبير عنها في شعـــره .

وهـــذا يجعلنا نقف امام قضية مهمـــة في الفن : فاذا كانت الالتزامية في الفـــن عامة ، وفي الشعر خاصة (وسأقصر حديثي هنا على الشعر) ، تساءلنا : مـــا غاية الشعر ؟

يـــرى البعض ان غاية الشعر هي المتعـــة ، وان القصيدة الجيدة هي التي تولـــد اكبر قدر منها . وفي رايي ان المتعـــة ليست غاية ، وان غاية الشعر عرض التجربـــة الانسانية عرضـــا يُرضي في نفس

فهما ومعرفة ، واذا كانت غاية العلم تفسير الوجود ، فان غاية الفن تقييم الوجود . وهذا ما تعالجه مرار في شعره .

وهذا ما عناه كارليل في كتابه القيم « سيرة ادبية »
Biographia Literaria

عندما قال : ان الشعر ليس مجرد انفعالات واحاسيس ، فارخص انواع الادب يدل على اثارتها . انه رؤيا ، وكشف عن اسرار الوجود .

* * *

ورغم التزام مرار العميق الحاد ، فانه كان في الوقت نفسه رومانسيا ، مغرقا في رومانسيته . واذا كان الرومانسيون الغربيون قد عبّروا بشعر حافل بالعاطفة المشبوبة من ثورتهم ، وهربوا الى الطبيعة والحياة البسيطة ، عندما ادركوا عجزهم عن التغيير ، فقد فعل مرار نفس الشيء : هرب الى مضارب النُوَر ، والى حياة الريف ، حيث البساطة ، وراحة البال ، والمساواة التامة :

الكل زُمَّ بمساواةٍ محقّقة تنفي الفوارق بين الجار والجارِ

* * *

٣ — شعر مرار شعر للرمز فيه دور كبير .

والحديث عن الرمز في شعر مرار حديث قد يطول ، ولهذا سنقصر حديثنا عن الرمز عنده على ثلاثة جوانب بارزة :

أولها : شخصية المرأة : وهي شخصية حقيقية ، ورمزية ، في آن واحد .

ويحدد وصف الرحيم الاستاذ يعقوب المودات المرأة ، فقال :

« شخصية نُوَرِيّة ، نبيلة الخُلُق ، مستقيمة التسوام ، اختارها مرار لرواية شكلها ، وحقارة شأنها ، هدفا لسهام نقده ، ومخاطبتها عندما يعالج اسوء خصاله ذوي الشأن ، واستفزازهم » . (مرار شاعر الاردن ، ص ١٣٨) .

ويقول المرحوم الاستاذ مسعود المطلق :

« رأى عرار في هذه الشخصية انموذجا كاملا لشخصية النَّوَري ، ومثالا معبّرا عن كل ما في النَّوَر من خير وشر ، وحسن وقبح ، ولهذا فقد اتخذ منه رمزا للنَّوَر ، وأداةً أدبية يستعين بها على التعبير عن آرائه ومقاصده ». (المقدمة ، ص ٢٢) .

وتقول الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي :

« لعرار مرارًا كان اول شاعر عربي حديث اشار الى رمزية ما في الشعر ، وجعلها رموزا لقضايا حيوية . جعل من الهبر رمزا للانسان البسيط المنبوذ المضطهد » . (مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني) .

وحقيقةُ الامر ان الهبر في شعر عرار رمز لاكثر من هذا :

انه رمز لما يتعاطف معه عندما يرى فيه الانسان البريء ، المنبوذ ، المضطهد ، والانسان المشرد الضائع .

وهو رمز لما يثير السخرية عندما يرى فيه الانسان الذي تملكه كل احساس بالكرامة .

* * *

ويبدو الرمز عند عرار ، ثانيا ، في شخصية الشيخ مجرد الذباب ، وهي شخصية تُناقِض الشخصية الاولى تماما : فهي رمز لفئة متنفذة : فِئَتُها : « في الجنة الخلودُ » ، ومبداها انها : « جِنَّةُ عين جبيه نقودُ » .

وسخريته منها ، ورفضه لها ، لانها بسلوكها تساهم في ابقاء الشعب على حاله من الجهل والتخلّف .

* * *

ويبدو الرمز عند عرار ، ثالثا ، في كل امرأة تغزّل بها ، وكلّ قرية ذكرها ، وكلّ وادٍ تَغَنّى به . انها كلها رموز لهذا الوطن ، الذي أحَبَّ كلَّ من فيه ، وما فيه .

١ ـ شعر عرار شعر عمودي ، منظوم على اوزان الخليل ، ما عدا قصيدتين هما :

« مَنْ ؟ » و « يا حلوة النظرة » .

ومن الخطأ الشائع ما نردده من ان كل قصيدة نظمت على وزن من اوزان الخليل فهي قصيدة عمودية ، مع ان الوزن (او البحر) ليس سوى شرط واحد من سبعة شروط حَدَّدها النقّاد العرب القدامى ، وجعلوها المبادىء التي يجب ان يتقيها الشعراء .

وكان المرزوقيّ خير من حدّد مفهوم عمود الشعر ، وذلك في مقدمته لشرح ديوان الحماسة ، في قوله : « انهم (القدماء) كانوا يحاولون : شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخيّر من الفاظ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها القافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة ابواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها عيار (اي مقياس) » . وجاء ابن طباطبا فكتب كتابه المعروف « عيار الشعر » .

شعر عرار عموديّ بهذا المفهوم للشعر العمودي الجيد .

ولسوء حظنا في هذا التعريف لوجدنا كثيرا من الشعر الذي يُعْرَف بأنه عمودي ، ليس عموديا .

* * *

هذه ملاحظات نقدية عامة على شعر عرار ، لعلها تصلح لخطاطا لدراسة موسعة .

ويبقى عرار ، بعد هذا ، شاعرا لم ينل من عناية الدارسين ما يستحقه .

وما زال مجال القول فيه واسعا .

الدكتور محمود السمرة